البَيَان

لِقَوَاعِدِ تَأْدِيبِ الصِّبْيَان

تأليف

نزار حمادي

دار الإمام ابن عرَفة

- تونس -

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ العَالَـمِين، وَصَلَّى الـلَّهُ وَسَلَّم عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الأَمِين، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

وَبَعْدُ؛ فَهَذَا بَيَانٌ لِجُمْلَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ تَأْدِيبِ الصِّبْيَانِ، لَخَّصْتُهَا مِنْ كِتَابِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ لِلْإِمَامِ الغَزَّالِيِّ حُجَّةِ الإِسْلَامِ، وَشَرْحِهِ لِلشَّرِيفِ العَلَّامَةِ الـمُرْتَضَى الحُسَيْنِيِّ الهُـمَام.

الصَّبِيُّ أَمَانَةٌ عِنْدَ وَالِدَيْهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، وَمَهْمَا كَانَ الأَبُ يَصُونُهُ عَنْ نَارِ الدُّنْيَا فَبِأَنْ يَصُونَهُ عَنْ نَارِ الآخِرَةِ أَوْلَى، فَإِنْ عُوِّدَهُ الْخَيْرَ أَوِ الشَّرَّ نَشَأَ عَلَيْهِ، وَشَارَكَهُ وَمُعَلِّمهُ فِي ثَوَابِهِ.

فَعَلَى وَلِيِّ الصَّبِيِّ أَنْ يُهَذِّبَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الـمَحَاسِنَ، وَيَحْفَظَهُ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوء، فَإِنَّ أَصْلَ تَأْدِيبِ الصِّبْيَانِ الحِفْظُ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوَءِ، وَعَلَيْهِ رَضَاعُهُ وَحَضَانَتُهُ مِنْ صَالِـحَةٍ تَأْكُلُ مِنْ مَحْضِ الْـحَلَالِ؛ فَإِنَّ اللَّبَنَ الحَاصِلَ مِنَ الحَرَامِ لَا بَرَكَةَ فِيهِ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِ نُشُوءُ الصَّبِيِّ انْعَجَنَتْ طِينَتُهُ مِنَ الخُبْثِ فَيَمِيلُ طَبْعُهُ إِلَى مَا يُنَاسِبُ الخَبَائِثَ.

وَالحَيَاءُ عِنْدَ التَّمْيِيزِ بُشْرَى كَمَالِ الصَّبِيِّ، فَإِذَا كَانَ يَحْتَشِمُ وَيَسْتَحِي وَيَتْرُكُ بَعْضَ الأَفْعَالِ فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِإِشْرَاقِ نُورِ العَقْلِ عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى بَعْضَ الأَشْيَاءِ قَبِيحًا وَمُخَالِفًا لِلْبَعْضِ، فَصَارَ يَسْتَحِي مِنْ شَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ مِنَ اللَّـهِ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَبِشَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى اعْتِدَالِ الأَخْلَاقِ وَصَفَاءِ القَلْبِ، وَهُوَ مُبَشِّرٌ بِكَمَالِ العَقْلِ عِنْدَ البُلُوغِ.

وَيُعَوِّدَهُ خُشُونَةَ قُوتِهِ وَلُبْسِهِ وَفِرَاشِهِ وَآدَابَهَا، فَمِنَ الآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ لِلطَّعَامِ أَنْ لَا يَأْخُذَهُ إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَيَقُولُ: «بِسْمِ اللَّـهِ» عِنْدَ أَخْذِهِ، وَأَنْ يَأْكُلَ مِمَّا يَلِيهِ، مُنْفَرِدًا أَوْ مَعَ جَمَاعَةٍ، وَأَنْ لَا يُبَادِرَ إِلَى الطَّعَامِ قَبْلَ غَيْرِهِ، بَلْ يَصْبِرُ عَنْ مَدِّ اليَدِ حَتَّى يَمُدَّ غَيْرُهُ، وَأَنْ لَا يُطِيلَ التَّحْدِيقَ إِلَى طَعَامٍ وَلَا إِلَى مَنْ يَأْكُل، وَأَنْ لَا يُسْرِعَ فِي الأَكْلِ، وَأَنْ يَمْضَغَ الطَّعَامَ مَضْغًا جَيِّدًا بِأَسْنَانِهِ، وَأَنْ لَا يُتَابِعَ بَيْنَ اللُّقَمِ، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ أَمَارَاتِ الشَّرَهِ وَدَنَاءَةِ النَّفْسِ وَالهِمَّةِ، وَأَنْ لَا يُلَطِّخَ يَدَهُ بِالطَّعَامِ غَيْرَ أَصَابِعِهِ الثَّلَاثَةِ، وَلَا ثَوْبَهُ بِأَنْ يَتَسَاقَطَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ.

وَيَذُمَّ لَهُ كَثْرَةُ الأَكْلِ بِأَنْ يُشَبَّهَ مَنْ يُكْثِرُ الأَكْلَ بِالبَهَائِمِ، فَإِنَّ الصَّبِيَّ بِتَمْيِيزِهِ يُدْرِكُ أَنَّ التَّشَبُّهَ بِالبَهَائِمِ مُسْتَرْذَلٌ، وَيُذَمُّ بَيْنَ يَدَيْهِ الصَّبِيُّ الَّذِي

يُكْثِرُ الأَكْلَ، وَيُمْدَحَ عِنْدَهُ الـمُتَأَدِّبُ القَلِيلُ الأَكْلِ، فَتَرَاهُ أَبَدًا يَمِيلُ إِلَى الـمَمْدُوحِ وَيَهْرَبُ مِنَ الـمَذْمُومِ.

وَيَذُمَّ لَهُ حُبُّ النَّقْدَيْنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالطَّمَعُ فِيهِمَا، وَيُحَذَّرُ مِنْهُمَا أَكْثَرَ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الحَيَّاتِ وَالعَقَارِبِ، فَإِنَّ آفَةَ حُبِّ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالطَّمَعِ فِيهِمَا أَكْثَرُ مِنْ آفَةِ السُّمُومِ عَلَى الصِّبْيَانِ، بَلْ عَلَى الأَكَابِرِ أَيْضًا.

وَيُقَبِّحَ إِلَيْهِ الأَخْذُ مِنْ الغَيْرِ، بَلْ يُعَلَّمُ أَنَّ الرِّفْعَةَ فِي العَطَاءِ لِلْغَيْرِ، لَا فِي الأَخْذِ مِنَ الغَيْرِ، وَأَنَّ الأَخْذَ لُؤْمٌ وَخِسَّةٌ وَدَنَاءَةٌ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ الفُقَرَاءِ فَيُعَلَّمُ أَنَّ الأَخْذَ وَالطَّمَعَ مَهَانَةٌ وَمَذَلَّةٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ دَأْبِ الكَلْبِ الَّذِي هُوَ أَخَسُّ الحَيَوَانَاتِ، فَإِنَّهُ يَتَبَصْبَصُ فِي انْتِظَارِ لُقْمَةٍ.

وَيَذُمَّ لَهُ الثِّيَابُ الْمُلَوَّنَةَ وَيُقَرِّرَ عِنْدَهُ أَنَّ ذَلِكَ شَأْنُ النِّسَاءِ وَالـمُخَنَّثِينَ الـمُتَشَبِّهِينَ بِالنِّسَاءِ، وَأَنَّ الرِّجَالَ يَسْتَنْكِفُونَ مِنْهُ وَيُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَيُكَرِّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ حَتَّى يَرْسَخَ فِي ذِهْنِهِ.

وَيَقِيهِ صُحْبَةَ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ عُوِّدُوا التَّنَعُّمَ وَالتَّرَفُّهَ وَلُبْسَ الثِّيَابِ الفَاخِرَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يُكَلِّفَ أَبَوَيْهِ بِمِثْلِ لِبَاسِهِمْ، وَيَقِيهِ الأَشْعَارَ الـمُغَزَّلَةَ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ العِشْقِ وَأَهْلِهِ وَحِكَايَاتِهِمْ وَمَا جَرَى لَهُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَى التَّشَبُّهِ بِهِمْ تَكَلُّفًا.

وَيَحْفَظَهُ أَيْضًا عَنْ مُخَالَطَةِ الأُدَبَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُعَرَاءَ وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الظَّرْفِ وَرِقَّةِ الطَّبْعِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَغْرِسُ فِي قَلْبِ الصِّبْيَانِ بَذْرَ الفَسَادِ، وَيَعْسُرُ إِزَالَتُهُ بَعْدُ.

وَيَقِيهِ عَمَّا سِوَى القُرْآنِ ثُمَّ السُّنَّةِ ثُمَّ سِيَرِ الصُّلَحَاءِ، وَيُجَازِيهِ بِكُلِّ صِفَةٍ جَمِيلَةٍ وَيَمْدَحُهُ بِهَا فِي النَّاسِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحَبِّبُ إِلَيْهِ الفِعْلَ الجَمِيلَ.

وَيَتَغَافَلُ عَنْ تَقْصِيرِهْ، وَإِنْ عَادَ عُوتِبَ سِرًّا، وَلَا يُكْثِرُ فَتَهُونُ عَلَيْهِ الـمَلَامَةُ.

وَلِيَكُنِ الْأَبُ حَافِظًا هَيْبَةَ الكَلَامِ مَعَهُ، فَلَا يُوَبِّخُهُ إِلَّا أَحْيَانًا لِتَكُونَ هَيْبَتُهُ فِي قَلْبِهِ دَائِمًا.

وَيَنْبَغِي لِلْأُمِّ أَنْ تُخَوِّفَهُ بِالأَبِ وَتَزْجُرَهُ عَنِ القَبَائِحِ؛ إِذِ الصَّبِيُّ يَهَابُ الأَبَ أَكْثَرَ مِنَ الأُمِّ لِكَثْرَةِ شَفَقَتِهَا عَلَيْهِ طَبْعًا.

وَيُمْنَعُ الصَّبِيُّ رَفَاهِيَّةَ النَّوْمِ مِنَ الفُرُشِ اللَّيِّنَةِ حَتَّى لَا يَرِقَّ بَدَنُهُ فَلَا يَصْبِرَ عَلَى التَّنَعُّمِ فِيمَا بَعْدُ، بَلْ يُعَوَّدُ الخُشُونَةَ فِي الفُرُشِ وَالـمَلْبَسِ وَالـمَطْعَمِ كَيْ لَا يَكْسَلَ وَتَفْتُرَ قُوَاهُ، وَيُمْنَعُ مِنِ افْتِخَارِهِ بِشَيْءٍ.

وَيُعَوَّدُ الصَّبِيُّ التَّوَاضُعَ وَالإِكْرَامَ لِـمُعَاشِرِيهِ، وَعَدَمَ بَصْقِهِ وَمَخْطِهِ وَتَثَاؤُبِهِ بِمَحْضَرٍ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ فَلْيَكْظِمْهُ، وَيُمْنَعُ وَضْعَ رِجْلٍ عَلَى رِجْلٍ، ويُعَلَّمُ كَيْفِيَّةَ الجُلُوسِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ جُلُوسُهُ أَبَدًا عَلَى رُكْبَتَيْهْ كَمَا يَجْلِسُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَا يَرْفَعُ إِحْدَى رُكْبَتَيْهِ، وَلَا يَجْلِسُ مُتَرَبِّعًا وَلَا مُتَوَرِّكًا.

وَيُمْنَعُ كَثْرَةَ الكَلَامِ، وَيُبَيَّنُ لَهُ أَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى الوَقَاحَةِ وَقِلَّةِ الحَيَاءِ، وَأَنَّهُ عَادَةُ أَبْنَاءِ اللِّئَامِ، وَيُعَوَّدُ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ إِلَّا جَوَابًا لِلْكَلَامِ، وَأَنْ يَكُونَ مُخْتَصَرًا بِقَدْرِ السُّؤَالِ، وَيُعَوَّدُ حُسْنَ الاسْتِمَاعِ مَهْمَا تَكَلَّمَ غَيْرُهُ مِمَّنْ هُوَ أَكْبَرُ سِنًّا مِنْهُ وَلَوْ بِقَلِيلٍ.

وَيُرَوِّحُ نَادِرًا بِلَعِبٍ جَمِيلٍ مِنْ وَهَجِ تَأْدِيبِهِ؛ فَإِنَّ مَنْعَ الصَّبِيِّ مِنَ اللَّعِبِ وَإِرْهَاقَهُ إِلَى التَّعَلُّمِ دَائِمًا يُمِيتُ قَلْبَهُ وَيُبْطِلُ ذَكَاءَهُ وَيُبَلِّدُ فَهْمَهُ وَيُنَغِّصُ العَيْشَ عَلَيْهِ، حَتَّى يَطْلُبَ الحِيلَةَ فِي الخَلَاصِ مِنْهُ رَأْسًا.

وَيُعَلَّمُ طَاعَةَ وَالِدَيْهِ وَمُعَلِّمِهِ وَالبِرَّ بِهِمْ وَبِكُلِّ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ سِنًّا مِنْهُ مِنْ قَرِيبٍ وَأَجْنَبِيٍّ، وَأَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الجَلَالَةِ وَالتَّعْظِيمِ.

وَيُؤْمَرُ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ لقوله ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الـمَضَاجِعِ**»، وَيُعَوَّدُ الطَّهَارَةَ شَرْعًا، وَلَا يُسْمَحُ لَهُ فِي تَرْكِهَا.

وَمَعَ قُرْبِ بُلُوغِهِ تُلْقَى إِلَيْهِ الأُمُورُ بِأَنْ يُعَلَّمَ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ مِنْ حُدُودِ الشَّرْعِ، وَيُخَوَّفُ مِنَ السَّرِقَةِ خَاصَّةً، فَإِنَّ طَبْعَ الصِّبْيَانِ يَمِيلُ إِلَيْهَا كَثِيرًا، وَمِنْ أَكْلِ الحَرَامِ، وَمِنَ الْكَذِبِ فِي القَوْلِ، وَمِنَ الخِيَانَةِ وَالغِشِّ وَكُلِّ مَا يَغْلِبُ عَلَى الصِّبْيَانِ مِنَ الأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ، فَإِذَا كَانَ نُشُوءُهُ كَذَلِكَ فِي الصِّبَا فَمَهْمَا قَارَنَ البُلُوغَ أَمْكَنَ أَنْ يَعْرِفَ أَسْرَارَ هَذِهِ الأُمُورِ تَفْصِيلًا.

وَيُعْلَمُ أَنَّ الـمُرَادَ مِنَ الْأَطْعِمَةِ تَقْوِيَةُ بَدَنِهِ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ الـمَوْتَ يَقْطَعُ نَعِيمَ الدُّنْيَا، وَأَنَّ العَاقِلَ يَنْتَظِرُ الـمَوْتَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، فَيَتَزَوَّدُ لِآخِرَتِهِ وَيَجْعَلُ الدُّنْيَا كَالقَنْطَرَةِ يَعْبُرُ عَلَيْهَا وَلَا يَعْمُرُهَا، وَيَأْخُذُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الوَاقِعَةَ بِمَنْزِلَةِ الزَّادِ الَّذِي يُبَلِّغُهُ فِي سَفَرِهِ مِنْهَا لِلْآخِرَةِ، حَتَّى تَعْظُمَ عِنْدَ اللَّـهِ دَرَجَتُهُ وَتَتَّسِعَ فِي الجِنَانِ نِعْمَتُهُ.

وَبِنُشُوءِهِ صَالِحاً يَثْبُتُ هَذَا فِي قَلْبِهِ كَنَقْشٍ فِي حَجَرٍ، فَلَا يَكَادُ يَمْتَحِي مِنْهُ، وَإِنْ وَقَعَ النُّشُوءُ بِخِلَافِ ذَلِكَ حَتَّى أَلِفَ الصَّبِيُّ اللَّعِبَ

وَالفُحْشَ وَالوَقَاحَةَ وَقِلَّةَ الحَيَاءِ وَشَرَهَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالتَّزَيُّنَ وَالتَّفَاخُرَ نَبَا قَلْبُهُ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ، فَأَوَائِلُ الأُمُورِ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُرَاعَى، فَإِنَّ الصَّبِيَّ خُلِقَ بِجَوْهَرِهِ قَابِلًا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا، وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يَمِيلَانِ بِهِ إِلَى أَحَدِ الجَانِبَيْنِ؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**».

وَقَدْ كَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّـهِ التُّسْتَرِيِّ يَقُومُ اللَّيْلَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ سِنِينَ لَيَنْظُرَ إِلَى صَلَاةِ خَالِهِ مُحَمَّدِ بْنِ سِوَارٍ البَصْرِيِّ، فَقِيلَ لَهُ مِنْ قِبَلِ خَالِهِ: أَلَا تَذْكُرُ اللَّـهَ الَّذِي خَلَقَكَ؟ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ: كَيْفَ أَذْكُرُهُ؟ فَقَالَ لَهُ خَالُهُ: قُلْ بِقَلْبِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ: اللهُ مَعِي، اللهُ نَاظِرٌ إِلَيَّ، اللهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ.

ثم قال له: قُلْ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ ذَلِكَ ثُمَّ أَعْلَمَ خَالَهُ بِحَالِهِ فَقَالَ لَهُ: قُلْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِحْدَى عَشَرَ مَرَّةً، فَوَجَدَ حَلَاوَتَهُ فَصَارَ يُلَازِمُهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ هَكَذَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ قَالَ لَهُ خَالُهُ: «احْفَظْ مَا عَلَّمْتُكَ، وَدُمْ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تَدْخُلَ القَبْرَ، فَإِنَّهُ يَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ حَيَاةُ القَلْبِ وَالـمَعْرِفَةُ، وَقَلْبُ العَارِفِ لَا

يَمُوتُ، بَلْ لَا يَزَالُ حَيًّا فِي قَبْرِهِ لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ الـمدَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ وَنَاظِرًا إِلَيْهِ وَشَاهِدَهُ أَيَعْصِيهِ؟! إِيَّاكَ وَالـمَعْصِيَةَ.

وَحَفِظَ سَهْلٌ القُرْآنَ لِنَحْوِ سَبْعٍ، وَكَانَ يَصُومُ الدَّهْرَ، وَقُوتُهُ الشَّعِيرُ، ثُمَّ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهَ، وَالـمَقْصُودُ مِنْ سَرْدِ هَذِهِ الحِكَايَةِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ أَوَائِلَ الأُمُورِ إِذَا رُوعِيَتْ تَتْبَعُهَا الـمَنَاهِي، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.